بسم الله الرحمن الرحيم

الشكل والمضمون جناحا الأدب الراقي

يتجه الأدب والنقد المتأثران بالنزعات الغربية الحديثة إلى الاهتمام المبالغ فيه بالشكل، وتُسقط في هذا الاتجاه الشكلاني الكاسح أهميةُ الأفكار والمضامين، ويُحَدِّر الأديب والناقد معاً من العناية بهما أو الاهتمام بشأنهما، بل إن حضورهما عند قوم ليصبح ضاراً بالعملية الإبداعية والعملية النقدية على حد سواء..

ولا شك أن الاهتمام المبالغ فيه بالشكل وإيلاء الظهر للفكر عملية ضارة خطيرة، إذ تفقد الأدب قيمته ومصداقيته، إن لم نقل مشروعيته، إذ يضحي الأدب - وقد أضحت كذلك نماذج لا حصر لها من الكتابات الحداثية - مجرد حلية لفظية، لا هم لها إلا الإبهار والإدهاش من غير فكر خلفها، إنها - كما يقول المثل العربي - «جعجعة من غير طحن».

غابت في هذا الاتجاه الشكلاني الطاغي هموم الناس ومشكلاتهم، وقضايا الأمة، وأحوال المجتمع، وأقصي الأدب عنها جميعها، حتى أصبح ينظر إليها على أنها تمثل «الخارج» أو «الإيديولوجيا» أو ما شاكل ذلك من عبارات الهزء والانتقاص. إن هذا الاتجاه الشكلاني «الزخرفي» هو اليوم سمة من سمات المجتمع الغربي، ولا سيما الغرب الليبرالي الرأسمالي المتخم المنتفخ من خيرات الشعوب الضعيفة التي انتهبها.

لقد أشار ذات مرة الناقد الشيوعي جورج لوكاتش في كتابه «دراسات في الواقعية» إلى التشويه الرأسمالي للأدب، إذ جعل من الكتاب ومن النقاد اختاصيين ضيقين، وانتزع منهم تلك الشمولية والعينية في الاهتمامات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والفنية، اللتين ميّزتا أدب النهضة والتنوير، وأدب مراحل الإعداد للثورات الديمقراطية..ص٥٠٢». إن الاتجاهات النقدية الحداثية وما بعد الحداثية التي هي من إنتاج الغرب هي اتجاهات شكلانية: بدءاً من النقد الجديد حتى آخر حركة نقدية من تفكيك وقراءة وتأويل وما شاكل ذلك، وهي لا تقيم أي وزن لتوجيه الأدب إلى أغراض إنسانية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو غيرها.

لقد أصبح الإبهار والإدهاش والاهتمام بالزينة والزخرف، والبحث عن المتعة، والاهتمام بالمظاهر، والتركيز على الشكل الخارجي الوهاج هي سمة المجتمع الغربي الحديث، وهي تنسحب إلى عالم الأدب والنقد، فلا يبدو هذا الأدب - في ضوء ما يروج له - معنياً بغير هذه الشكليات التي لا يجوز البحث عما وراءها، أو عما تنطوي عليه من القيمة والفائدة للإنسان.

إن الاستهلاك اليوم هو سمة المجتمع الغربي الحداثي المُصَدَّر إلينا، وهو كذلك سمة الأدب والنقد المصدرين إلينا، حيث يتحول الأدب في هذا الاتجاه الاستهلاكي - كالمادة تماماً - إلى غاية في حد ذاته.

إن كل شيء يتحول إلى صورة باهرة، وتشكيلات زخرفية مثيرة، ولكنها لا تنطوي على شيء ذي بال وراءها. إنها صورة وتشكيلات تهز الحواس، وتثير الغرائز، وتحرك الشهوات، ولكنها لا تخاطب في الإنسان عقلاً ولا ضميراً، ولا تحرك فيه وازعاً، إنها تحمله على الاستمتاع والعبث، ولكنها لا تحمله على التفكير والتأمل.

إن الشكل في الأدب وسيلة وليس غاية، إنه وعاء الفكر، ومعرض للمعاني والقيم، ولا قيمة لشكل - مهما بهر وأدهش - إن لم ينطو على شيء ذي بال، الشكل والمضمون هما جناحا كل أدب راقٍ.

مدير التحرير